محددات الاغتراب وتجلياته في أدب الدكتورزكي مبارك

The determinants of alienation and its manifestations in the literature of Dr. Zaki Mubarak

محمد فيصل معامير [*1]،

[1] **جامعة بسكرة(الجزائر)** faycal.maamir@univ-biskra.dz

تاريخ الإيداع: 2024/01/16 **تاريخ المراجعة**: 2024/05/21 **تاريخ النشر**: 2024/06/30

ملخص:

تنهض هذه الدراسة على الوقوف عند محددات الاغتراب من حيث النشأة، وكيف اتخذ لنفسه مسارات تعريفية عقيب ذلك، ثم لنتخذ من حياة الدكتور زكي مبارك أنموذجا من خلال أدبه وما خلفه من آثار شعرية ونثرية، وبيان أهم الدواعي الذاتية والبواعث الموضوعية التي كمنت وراء تلك المحنة القاسية، وأخيرا الكشف عن أهم تجليات ظاهرة الاغتراب ومحاولة تفسيرها.

الكلمات المفتاحية: محددات، الاغتراب، الدواعي الذاتية، البواعث الموضوعية، تجليات ظاهرة الاغتراب،الآثار الشعرية والنثرية.

Abstract:

This study rises to stand at the determinants of alienation in terms of upbringing, and how it took for itself defining paths following that, then let us take from the life of Dr. Zaki Mubarak as a model through his literature and the poetic and prose effects he left behind, and to clarify the most important subjective reasons and objective motives that lay behind that yearning. Finally, the most important manifestations of the alienation phenomenon are revealed and an attempt is made to explain them.

***Key words**: Determinants, alienation, subjective reasons, objective motives, manifestations of the phenomenon of alienation, poetic and prose effects.*

تأسيس

ربما يكون من المؤسف حقا أن يغفل اسم هذا الكاتب الاستثنائي في معظم الدراسات المؤرخة للأدب العربي الحديث وتطوره؛ وقد يُعزى ذلك إلى الصورة المشوهة التي تكونت عنه بسبب إفراطه في ذاتيته وعنف معاركه وصراحته الحادة. من هنا تأتي هذه الدراسة لتبحث في أهم جوانب المجهولة في حياته، وللوقوف على مأساته التي أورثته الشعور بالاغتراب الدائم، وهو ما انعكس على كتاباته التي اتسمت بالصدق الفني؛ مما أكسب أدبه عمقا وحرارة وأصالة .

* المؤلف المراسل.

الاغتراب: من إرهصات اللغة إلى تخوم الاصطلاح

جاء في لسان العرب للعلامة ابن منظور في مادة " غرب" مايأتي: الغُربةُ والغُرْبُ بمعنى النزوح عن الوطن، وبمعنى الاغتراب، ومنه قول المُتَلَمِّس :

ألا أبْلِغَنْ أفناءَ سَعدِ بنِ مالكٍ رِسالةَ مَن قد صار في الغُربِ جانبُهْ [1]

فكلمة الغُربِ هنا وردت بمعنى الاغتراب والابتعاد عن الوطن وهجرانه. وجاء أيضا : والاغترابُ والتَّغَرُّبُ بمعنىً، ومنه نقول: تغَرَّبَ فلان واغترب، وفلان غرَّبه الدهر أي أبعَدَهُ عن أهله ونحَّاه بعيدا، وفلان غريب بمعنى بعيدٌ عن وطنه، والجمع غرباء ومؤنثه غريبة، وفيه قول الشاعر :

إذا كوكبُ الخرقاءِ لاحَ بِسُحرَةٍ سُهَيْلٌ، أذاعتْ غَزْلها في الغَرائبِ[2]

ويقال: أغْرَبَ الرجل أي صار غريبا، ورجل غريب ليس من القوم. والغرباء هم الأباعد[3]

كما ورد في المعجم الأدبي عن الغربة والاغتراب مافحواه: الاغتراب هو عاطفة تستولي على المرء وبخاصة الفنان، فيعيش في قلق وكآبة لشعوره بالبعد عما يهوى أو يرغب فيه، فهو أبدا تَوّاقٌ إلى عالم آخر خير من هذا، وبأنه ملاق فيه كل ما يحقق رغباته الظمآى على الأرض. وقد شاع هذا النوع من الغربة في آثار الرومانسيين، وبلغ أوضح ملامحه في أشعار الصوفية كالحلاج وابن الفارض وابن عربي، وكل من سار على دربهم من القدامى والمحدثين.[4]

ولعل ظاهرة الاغتراب أن تكون أبرز مظاهر العصر الحديث، وهو يتجسد في كل الأنشطة الإنسانية سواء عليها أكانت الأدبية منها أو الفنية أو الفكرية. وبالرغم من التقدم العلمي الهائل والقفزة النوعية التي أحرزتها العلوم في هذا العصر، إلا أنها عجزت عن وضع حد لانتشار هذه الظاهرة .

وقد يقر في النفوس والأذهان أننا نحن العرب أكثر تعرضا للاغتراب نتيجة التغيير السريع الشامل في مظاهر الحياة، ولأننا نواجه تحديات الحضارة الضخمة بثقافة سطحية محدودة وبوعي مهزوز، لذلك فنحن عرضة للقلق والغثيان والشعور بالضياع وعدم الطمأنينة، وهذه هي أبجديات الاغتراب . ورغم هذا، فهناك من يرفض أن تضاف لفظة الاغتراب إلى قاموس اللغة العربية، ويرى بأنها لفظة تفردت بها اللغة العربية ويقترح حذفها من المعجمات إذ لا يكاد يوجد لها نظير في اللغات الأجنبية [5].

وقد كرس العدد الأول من مجلة عالم الفكر الصادر عن وزارة الإعلام الكويتية لدراسة ظاهرة الاغتراب من الناحية الفلسفية والفكرية، ومن أهم الدراسات التي ضمها ذلك العدد عن الاغتراب خمس دراسات هي :
- الاغتراب اصطلاحا ومفهوما وواقعا- الاغتراب في الذات- الاغتراب في الإسلام- الاغتراب والوعي الكوني- الاغتراب عند فيو باخ.[6]

ورغم الغموض والخلط في تحديد مفهوم الاغتراب، فإن المضمون الجوهري لهذا المفهوم يظهر في أنه يعطي المعنى المشترك لكل المعاني السالفة، وإن كانت كلها تمثل الجانب السلبي أو الجانب المرضي منه مغفلة

الجانب الإيجابي أو الموضوعي. وقد تجلى هذا الجانب من خلال الدراسة التي كتبها فتح الله خليف وفيها يصف المعتزلة والخوارج والمتصوفة بالمغتربين.[7] ويمكننا أن نعثر على بدايات فكرة الاغتراب لدى أدباء ومفكري عصر النهضة من أمثال: روسو - غوته - شللر - فيخته - هيجل ... وقد كانت هذه الفكرة من الناحية الموضوعية شكلا خاصا للتعبير عن رفض الطابع اللانساني لعلاقات المجتمع الاستغلالي.[8]

وفي الفترة الأخيرة شُرِع في استخدام مصطلح الاغتراب للإشارة إلى مختلف الظواهر الأدبية الفنية، كما برز هذا الاصطلاح في بعض الأحيان كصفة للمخاتلات والشعوذات الفلسفية والاجتماعية[9]، وبخاصة ما يسمى بعصر اللامنتمي، وهو عصر ما بعد داروين وفرويد وآنشتاين والقنبلة الذرية . وقد يعرف اللامنتمي بأنه ذلك الإنسان الذي يدرك ما تنهض عليه الحياة الإنسانية من أساس واهن والذي يشعر بأن الاضطراب والفوضوية هما أعمق تجذرا من النظام الذي يؤمن به قومه، فهو قد رأى الماضي أشخاصا مثل هذا اللامنتمي وقد توفرت لديهم مثل هذه الرؤى المفزعة، إلا أن هذا النوع لم يمثل عصره يوما كما يفعل الآن.[10]

قلنا فيما سبق إننا - نحن العرب- أكثر تعرضا لهذا النوع من المرض الإنساني الذي بدأ يضرب بمعاوله في جسم الأمة العربية، وذلك لما استحدثه العلم والتقنية وماخلفاه من آثار على الإنسان العربي المتخلف، فبات لا يعرف سوى الاستياء والتذمر والشكوى والنفور من الواقع والإحساس بالضياع واليتم ... وتلك بعض ملامح الاغتراب. [11]

ولشرح هذا الكلام قليلا نقول إن العرب أمة عريقة في التدين، الذي هو في ذاته تصوف، لأنه نوع من الضعف، والضعف باب إلى الهروب والاعتزال، والإنسان- في الأصل- حيوان شرس يقاتل ويجاهد ويغالب ثم تأتي عليه لحظات يصرعه فيه الضعف فيقف متأملا: من هو؟ من أين أتى ؟ وإلى أين ينتهي ؟ ويصير به الفكر إلى الاقتناع بأنه مخلوق ضعيف، وساعتئذ يكون التدين. والمتدينون فريقان: واحد لا يزال يحس القوة والعافية فيجاهد ويغالب في ميادين الحياة، وثان ينتهي به الضعف إلى التسليم المطلق، فيرضى بالدون من العيش ويتوجه إلى التفكير في ملكوت السماء. [12]

ونواجه هذه المسألة بصراحة أكثر فنقول: إن ثمة من يرى في هذا الباب[13] أن الشخصية الإنسانية شخصيتان، فواحدة حيوانية والثانية إنسانية، ويرى بأن الأولى هي الأصل وأن الفضائل والأمور الخيرة تقوم فيها على أساس العنف والغلبة، وهي شخصية لا تزال محفوظة الملامح في كتب الأساطير، والناس يحنون إليها حنينا شديدا، حتى إننا لنراهم في الكتب الروائية يتمنون أن لا ينهزم القوي وإن بغى وخان.[14]

أسلفنا فيما سبق بأن الاغتراب كظاهرة هو قاسم مشترك في النشاط الفكري الإنساني، ولما كان ذلك كذلك، فلا غرو يكون للإنسان العربي حضوره في هذا المقام، وقد عرف الإنسان العربي هذه الظاهرة بأشكال متعددة، غير أنه في أغلب أحواله كان يشكو الغربة التي تفيد البعاد وترك الديار والأحباب، وتاريخ العربي طافح في أدبه بالشواهد لغربة الحب والمحبين، وكما يقال: كل مهجور غريب، لأن الأمر كما قال الشريف الرضي :

ليس الغريبُ الذي تَنأى الدّيارُ بهِ إنّ الغريبَ قريبٌ غيرُ مَودودِ[15]

أو كما قال الطّغرائي وهو يحاور حمامةً باكية :

أيكةٌ صَدحَتْ شَجْوى على فننٍ فأشعلتْ صاخبًا من نارِ أجفاني

ناحتْ وما فقدتْ إلفًا ولا فجُعتْ فذكّرتْني أوطاري وأوطاني

إنْ كان نوحُك إسعادا لمُغتربٍ ناءٍ عن الأهلِ ممْنُوّ بهِجْرانِ

فقارضيني إذا ماعتادني طربٌ وجْدًا بوجدٍ وسُلوانًا بسُلوانِ[16]

وثمة من يشكو الغربة في دياره بين أصحابه وخلانه، ولا يشكوها في مكان تذهب عنه فيه وحشة الغربة. وقد تكون لكل وحشة إن طال أمدها نتائج سلبية كريهة، أيسرها متاعب الاغتراب التي ينوء بها قلب المغترب كما قال أحدهم : وراعني أن أجد في دياركم رجالا من أهل العلم، ورجالا يعرفون الأخوة الأدبية فيُزيلون عني كل وحشة ويُذهبون عن قلبي متاعب الاغتراب.[17]

وهناك من يصور في عجب نفس المحب في غربته ونواه، وهي تأنس بديار الأحباب فوق ما يأنس المقيم كأن يقول:

بها تَسكُنُ النفسُ النّفورُ ويَغتدي بآنسَ من قلبي المُقيمِ نَزيعُها[18]

لقد كان للإنسان المعاصر قسط وافر من المعاناة والأحزان حتى غدى لا يعرف سواهما ، وهكذا ومنذ آدم وحتى الإنسان المعاصر نرى الاغتراب يسكن رؤوس البشر، ونرى حياة إنسان العصر الحاضر تفتقر للراحة والهوء والاستقرار؛ وهاهو الشاعر الريفي عبد الباسط الصوفي يئن ويصرخ بسبب الثقوب والشروخ التي خلفها الاغتراب في أعماقه :

إلى أين أمشي؟ وحولي الحياة

دروبٌ وأوهامُ يأسٍ مرير

لمن بسمتي حين يبكي الغروب؟

لمن دمعتي حين يَشدو الضمير

وكيف وأين المَسير

نَقود رِكابَ العدم

على نفثات الحنين

وفي سخريات الندم [19]

إن مشكلة الإنسان المعاصر المغترب تكمن في بحثه عن الحرية وعن نفسه فيها، ولا يقصد هنا الحرية السياسية وإنما هي الحرية بمعناها الروحي العميق.

ونخلص في النهاية إلى كلمة موجزة فنقول: نتبين من كل الذي أسلفناه عرضا ومناقشة أن الاغتراب هو ظاهرة أو حالة قديمة نشأت مع أول إنسان على هذه الأرض .. مع آدم ضحية الفاكهة المحرمة والحية الرّقطاء. كما نتبين أن الاغتراب رافق الأنبياء والمصلحين والمفكرين والثوار عبر العصور التاريخية على تبيانها، بيد أنه في عصرنا هذا الكريه يعتبر هو السمة البارزة حيث لا سمة غيره، فهو عنوانه الواضح .

ويعتقد أن هذه الظاهرة تنشب بأظافرها في جسد المجتمع الصناعي الحديث حيث التكنولوجيا والذرة، ولكننا لو صارحنا أنفسنا قليلا لرأينا بأن مخالبه تمزق بشكل أفظع جسد المجتمعات المتخلفة المريضة التي لا تملك لنفسها حولا ولا قوة، حيث تكثر اللاءات الرافضة لكل شيء، وحيث لكي يكون لك اعتبار ووجود يفرض عليك أن ترضخ للواقع واللاواقع وتستسلم للمعقول واللامعقول، وإلا سيكون مكانك وأمثالك سلة المهملات تستجم فيها

سويعات خالدة في زمن متعفن ممجوج[20]. ولله حكمة عالية في خلق أسباب الشقاق والنفاق بين الناس لا يعلمهاإلا الراسخون في البلاء والنكبات ممن أقذوا عيونهم تحت أضواء المصابيح. لقد كان للأبحاث الأنتروبولوجية نتائج باهرة توصلت إليها في بحثها عن مفهوم الاغتراب، ولعل أهم نتائجها هو تركيزها على أهمية الهوية الحضارية باعتبارها قوة تدعم القوة الذاتية للأفراد وتحافظ على وحدتهم وترابطهم الاجتماعي[21] في مواجهة الشعور بالاغتراب الذي يجعلهم مبهورين ومشدوهين ومنسحقين إزاء حضارة هذا الغرب المعاصر ... ومن يدري لعل الآزفة قد أزفت .

1- الدواعي الذاتية :

- شخصية مبارك النادرة ومزاجه الحاد الصراح

أخشى ألا أظفر بكلمة رثاءٍ يوم يشيعني الناس إلى قبري، فذاكرة بني آدم ضعيفة جدا وهم لا يذكرون إلا من يؤذيهم، أما الذي يخدمهم ويشقى في سبيلهم، فلا يذكره أحد منهم إلا وفي كلامه نبرة تشير إلى أنه يتصدق بكلمة المعروف [22]. والغريب حقا أن نبوءة زكي مبارك قد صدقت؛ فهذا الأستاذ الموسوعي شوقي ضيف يضع كتابا عن الأدب العربي في مصر في الفترة ما بين 1850 - 1950 يذكر فيه جيل مبارك دون أن يشير إليه بكلمة واحدة . لقد كان مبارك من الوجهة النفسية مزاجا خاصا بين كتاب عصره وأدباءه. لقد كانت له مركبات الفنان وفكر العالم وعقل الفيلسوف وقلب المتصوف .[23]

لقد كان مبارك عفًّا ذا كبرياء مترفعا ذا أنفة وعزة لا يصطنع المحاباة ولا المداراة ، ولو سهّلا عليه الطريق إلى الثراء والمجد العريض. ونحب أن نستأنس بشواهد من واقع حياته المكدودة ومعاناته المريرة،

فالصراحة تمثيلا هي أوضح طباع الرجل، لقد كان يقول في الدنيا وقيمتها: إن الاعتصام بشواهق الجبال فرارا من ظلم الناس فيه ملامح شعرية، ولكنه دليل على حب السلامة وذلك من أخلاق الضعفاء، وأشرف منه أن تدخل المعركة وأن يخضب الدم وجهك وصدرك ويديك وأن تلقى الله بوجه شريف لم يعرف صاحبه الجبن ولا الرياء ولا الخداع .. الدنيا جنة دانية القطوف وفي بعض أركانها أفاعي وصلال، وما أفاعيها إلا لآم الناس[24]. وما الرأي في هذه الصراحة المنقطعة النظير: إن الشهوات هي الأصل في عمارة الوجود، ولكن من الذي يرضى أن تذهب مروءته ليعمر الوجود؟ وهل يستطيع أطرف الأدباء الخلود أكثر من إبليس؟ إن بعض الأدباء- وأنا منهم- يتوهمون أن وصف الشهوات والمآثم يرفع الأدب ويحييه وذلك ضلال مبين.[25]

على أن مباركا لا يمجد الحس لأنه يراه طريقا إلى فلسفة بناءة أو مذهب حيوي رغم اعترافه به، وهو لا يدعو إليه، وإنما يدعو إلى الكشف عنه بأنه موجود وجودا لازما في طبيعة الإنسان، بل إن الشهوات في نظر مبارك هي من نعم الله على عباده، وهي من دلائل العافية، فقط الإسراف فيها هو القبيح، إنه يقول : أقول هذا وأنا أعرف أن في بني آدم من يوحي إليه الرياء بتكذيب هذه البينات، ولكن ماذا يهمني وأنا حريص كل الحرص على الجهر بكلمة الحق.[26] وهو يقول أيضا : أنا أعرف أني أوذي نفسي بهذه التحليلات، وأعرف بأنها قد تصورني بصورة الرجل الفاتك، ولكن ماذا أصنع وأنا أريد أن أصدق كل الصدق وأنا أحادث القرّاء.[27]

إخفاقه الشديد في الحب

لقد شهد الدكتور مبارك على نفسه بأن من صفاته الرئيسية فيه هي القلب الخفاق ، فقد كان له في كل يوم غرام جديد ... فما هي قصة مبارك مع الحب ومع المرأة ، وما أثر ذلك في حياته؟

تحكي معظم كتاباته بأنه كان عاشقا وله قلب قوي العاطفة ، فقد قضى حياته يتقلب على سعير الوجد ووهج العواطف، و قد طاب له أن يفصح عن سرائر روحه وأسرار قلبه فملأ الدنيا حبا وهياما ... لقد كان زكي مبارك صادقا في كل شيء وأولها الحب الذي كان فيه شفافا إلى غاية المكاشفة الصادقة، وقد رسم صورا عذبة صادقة لخفقات قلبه وترانيم وجدانه ...

الحب هو أن تذوب القسوة في كوثر الحنان، وأن تأنس الأسود إلى فتك الظباء؛ الحب هو أن تصير قلبا تجرحه النظرة وتفتنه الخطره ويأسره الضلال...[28] ولقد كان لصبابة مبارك واحتراقه بنيران الحب أثر بعيد في إيمانه بالمرأة وأثرها البعيد في حياته كفنان. وقد كان أبدا يعشق الحسن ويهيم بالجمال، ويسعى وراء الحسن أينما كان، لقد كان يرى أنه موكل بتتبع الجمال في كل بقعة وكل أرض على الرغم من صدود الملاح وقسوة الوجوه الصباح :

حسِبتمْ هذه الدّنيا تَضيقُ برحبِها عنّا

فصِرتمْ كلما جئنا نَقرتُم جهرةً منّا

أسأتمْ إذ تبرّأتمْ بهذا العاشقْ المُضْنى

ولو أنصفتُمُ قلتم، أديبٌ يعبدُ الحُسْنا [29]

لقد اعترف مبارك بأثر المرأة في حياته كملهمة تمد أدبه بالحرارة والصدق .. ولكننا نسأل سؤالا آخر شبيها بأخيه الذي سبق فنقول: ما هي المرأة التي كان زكي مبارك يؤثرها بحبه كملهمة؛ لقد كان يقول : قضيت أكثر من عشرين عاما في الدراسات الفلسفية والمرأة الرقيقة القلب لا تؤنسني إلا قليلا ... لأن عقلي أكبر من قلبي، وأنا أشتهي المرأة اللئيمة التي يكون غرامي بها فرصة لدراسة القلوب والنفوس والعقول.[30] لقد كان لهذه الفلسفة الغريبة في ماهية المرأة المشتهاة أثر كبير في شقاء مبارك في الحب واحتراقه في أتونه ؛ لقد كانت له غراميات في كل مكان يحل فيه أو يرحل إليه؛ كانت له غراميات في سنتريس والمنصورة والقاهرة والإسكندرية وباريس وبغداد والزمالك .[31] ويبدو أن انتقاله من أرض إلى أرض؛ ومن هوًى إاى هوًى، قد زاد في إضرام عواطفه وإلهاب أحاسيسه من حيث يجهل مصيره النكود مع بنات حواء. وهكذا ظل زكي مبارك عاشقا لبدائع الحسن وصور الجمال، وظل يغني فوق أفنان الجمال حتى آخر نسمة في حياته مفصحًا عن سرائر روحه وأسرار قلبه بما أوتي من سحر البيان ونبل المشاعر وروعة التصوير ... لقد كان أبدا في حبه عاشقا عذريا لأنه هو نفسه يعرف الحب العذري بأنه حب طاهر شريف لا يعرف مخزيات المآثم ولا منديات الأهواء، حب خالص من شوائب الدنس والأرجاس الأرضية ..[32]

لقد أراد مبارك أن يحب امرأة مثالية رسمها في خياله فاصطدم بالواقع والحقيقة معا؛ فكانت رجة هائلة وكانت مأساته العاصفة .

2- الدواعي الموضوعية :

قصته مع طه حسين

كانت تلك ما أسميناه بالدواعي الذاتية التي حكمت على الدكتور زكي مبارك في أن يحيا اغترابا روحيا قاتلا، ونعرج التَّوَّ على الدواعي الموضوعية، أي التي لم يكن له فيها نصيب من المسؤولية، فقط لأنه أراد أن يجدف عكس التيار السائد في ذلك الوقت فنقول : رجع زكي مبارك من السربون متحصلا على شهادة الدكتوراه الثانية في مسيرته العلمية ليلتحق بالعمل في الجامعة المصرية، ومما سهل عليه ذلك هو عدم وجود الدكتور طه حسين آنذاك، نظرا لما كان بينهما من خصومة أدبية قديمة[33]؛ فإنها زادت قوة وعنفا عندما شرع الدكتور طه حسين يشن عليه الهجوم مبديا استغرابه من المسؤولين الذين عينوه في الجامعة.[34]

ويعود الدكتور طه حسين مسؤولا في الجامعة، ويقترح بعض الزملاء أن يقوم زكي مبارك نفسه بالترحيب بطه حسين نيابة عنهم لإزالة ما بينهما من جفوة، فيرد مبارك إني أرحب بعودة الدكتور طه وقد زاملته من قبل ثلاث سنوات وكنت من قبل من تلاميذه الأوفياء، والذي وقع بيني وبينه لم يكن شيئا خارجا عن المألوف، إلا المقال الذي نشرته في جريدة "البلاغ"، وهو مقال أعرف أن فيه شيئا من الشطط، ولكني لا

أعتذر عنه لأنه من بعض ما علمني، ومن الخير أن يتناسى ما فات لأن مصلحة العمل توجب الوفاق.[35] حتى إذا ما انتهت مدة عقد مبارك أرسلت إدارة الجامعة إلى طه حسين رئيس القسم تسأله رأيه عن تجديد عقده، فما كان منه إلا أن قال: أنا لم أُستشَر في تعيينه، فلا أستشار في تجديد عقده.

وبهذا فصل مبارك من عمله وأصبح عاطلا. وقد كتب هو عن هذا الموقف الغريب مقالا جعل عنوانه "طه حسين بين البغي والعقوق"؛ ومما جاء فيه : لقد ظن طه حسين أنه قد انتزع اللقمة من يدي أطفالي، فليعلم حضرته أن أطفالي لو جاعوا لشويت طه حسين وأطعمتهم من لحمه إن جاز أن أقدم لأطفالي لحوم الكلاب.[36]

ولقد كان موقف طه حسين ذاك مدعاة أسف و أسىً من كبار الأدباء في مصر والبلاد العربية .

لقد كان لصراحة مبارك العنيفة آثار سيئة بحيث جرّت عليه متاعب كثيرة لا تطاق، وأثارت حوله الأراجيف فحورب في رزقه وعمله وهو من هو في مكانته العلمية ووضعه الاجتماعي.

معركته مع أحمد أمين :

وأما المعركة الثانية التي ملأت الدنيا وشغلت الناس فقد كانت مع الأستاذ أحمد أمين ، وقد امتدت خمسة أشهر، وقد اشترك فيها غيرهما من أصحاب الأقلام. وقد كانت معركة شهيرة، حيث كشفت عن موسوعية زكي مبارك العلمية وموضوعيته في طروحاته الفكرية والأدبية ...

في سنة 1939 نشر أحمد أمين سلسلة من المقالات الأدبية جعل عنوانها"جناية الأدب الجاهلي على الأدب العربي" حمل فيها حملة منكرة على الأدب الجاهلي، حيث اتهمه بخمس تهم خطيرة نوجزها كالآتي:

1- عدم تغير الشعر الإسلامي عن الشعر الجاهلي إلا قليلا 2- تقديس العرب للقديم مهما يكن 3- ضعف إحساس العرب بالطبيعة 4- الأدب العربي أدب تركيبي وليس تحليليا 5- الأدب العربي أدب معدة وليس أدب روح .[37]

ولكن مبارك بالرغم من أنه قد درس على يد المستشرقين وتخرج في السربون، إلا أنه قد وقف في وجه تلك التهم موقفا صلبا، حيث كتب سلسلة طويلة من المقالات [38] تحت عنوان "جناية أحمد أمين على الأدب العربي."[39] وقد سمى مبارك عمله هذا بالحملة حيث قال: أحدد الغرض من هذه الحملة فأقول: تورط أحمد أمين في أحكام جائرة وهو يلخص تاريخ الأدب بطريقة صحفية .[40]

وفي تلك المقالات برزت غيرة مبارك الشديدة على تراثه وعروبته كعادته حيث يقول : لقد فكرت كثيرا قبل أن أقدم على هذه الحملة الأدبية، وصحّ عندي أن الغضّ من قيمة الأدب العربي هو عدوان على كرامة الأمة العربية، فأنا أستهدف عداوة هذا الرجل وعداوة أصدقائه في سبيل المبدإ والعقيدة، والهجوم على هذا الرجل قد ينفعه أجزل النفع ويصرفه عن التحامل البغيض على الأدب العربي.[41]

عدم إنصاف مجتمعه له

إن الحقيقة التاريخية والأمانة العلمية تقضي على من يؤرخون لزكي مبارك بأن لا يفصلوا بين أدبه وبين حياته التي هي أساس لا غنى عنه في فهم أدبه والتقاليد التي كانت تحكم حياته وعصره .

لقد كانت أحزان مبارك كثيرة فكثرت شكواه وكان يحس بأنه غريب بين أهله وزمانه، في حين كانت مبادئه وصراحته وتأبيه على الخنوع، كل أولئك هي التي كانت غريبة . يقول مبارك في قصيدة حزينة :

أحبّايَ ضاقتْ بي بـلادي وآذني زماني فأوْلاني من الكرْبِ ما يُردي

إذا قلت أيام الشقاء إلى مـدىً تعاقبن بالأنواء والبرق والرعـد

وإن ظمئت روحي إلى الصفو صدني عن الصفو أقوام جبلن على الحقد

ثلاثون عاما أو تزيد قضـيتها جوادًا ببذل الروح للوطن الفـرد

بلادي بلادي أنت من أنـت إنني أجوع منك الصاب ينعت بالشهد[42]

تجليات الاغتراب :

شعوره بالانفصال عن مجتمعه

وهكذا صار زكي مبارك سيء الظن بالناس والحياة، حيث يقول : أخشى ألا أظفر بكلمة رثاء يوم يشيعني الناس إلى قبري، وكيف لا وهو يعبر عن خيبة مرة في حياته ومجتمعه فيقول : إن قلت لك إنني أشكو خيبة الحب وإخفاقا في المجد أو غدرا من الأصدقاء، فاعلم أن هذه كلها محرجات هينة تنزعج لها النفس لحظة ثم تزول. وأكاد أحس أن الناس يتخذون من الحب والصداقة عُلالاتٍ لقلوبهم وأرواحهم، وأظنهم ينزعون إلى الأحزاب لينسوا ما في أنفسهم من القلاقل والثورات. وأنا لم أنجح في شيء من ذلك لأن استقلال إرادتي حال بيني وبين الاندماج التام في هيئة من الهيئات أو حزب من الأحزاب .[43]

إن مباركا لم يخلق أعداءه، ولكنه رُمي بهم فلم تكن له مندوحة من صدهم والوقوف لهم بالمرصاد، حيث يقول: فنحن لم نخلق أعداءً نحاربهم وإنما نحارب أعداءً نراهم رأي العين، وهم والله- أحقر من أن نعرض لهم بنقد أو ملام ، ولكن حقارتهم لاتمنع المؤمن من وخز صدورهم بلواذع الهجاء، فقديما كان الشيطان ملعونا بألسنة المؤمنين، وما الذي يمنع من حرب الزور والبهتان؟[44]

ظاهرة الإعلان عن الذات : دواعيها وتفسيرها:

إننا لا نؤرخ لزكي مبارك، وإنما نحاول فقط رصد ملامح من حياته المكدودة ودراستها في ضوء تجاربه المريرة ، فنحن نعجز عن تتبع الكاتب في جميع مراحل حياته المختلفة، ومن هنا فإننا هنا نحاول التركيز على ظاهرة "الإعلان عن الذات" لا على ما صارت إليه أحوال زكي مبارك في أخريات حياته، والنتائج المترتبة على

المقدمات الطويلة من حياته النضالية . لقد كان لهذه الظاهرة أسباب ودواعي كثيرة، وكان من بين مقدماتها الفطرية غير المكتسبة .

ذاتية مبارك الشديدة سواء في ذلك كتاباته أو شخصيته . لقد كانت قوة الذاتية من أظهر خصائص زكي مبارك وقد صنعتها أمور كثيرة، فقد كان مبارك يجمع بين العبقرية والفتوة والعشق. ومن هذه العوامل المتكاملة كانت هذه الذاتية .

يرى زكي مبارك أن الذاتية الأدبية هي أن تكون أنت أنت فيما تكتب وفيما تقول، بحيث يشعر من يقرأ لك أو يستمع إليك أنك تنقل عن قلبك وضميرك وأن لك خصائص ذاتية لا يزاحمك فيها سواك، وأنك لو نشرت مقالا بدون إمضاء لنم عليك الروح قبل أن ينمَّ عليك الأسلوب[45]. وكان يعتز بذاتيته إذ يقول : أنا أومن بأنه لا يمكن لأحد أكتب مني إلا إذا استطاع أن يكون أصدق مني ، ومن المستحيل أن يكون في الدنيا أحد أصدق من نفسي[46] .

ويفسر زكي مبارك سر اعتزازه بنفسه فيقول: أنا أكثر من الثناء على نفسي لسبب معقول هو إيماني بقوتي الذاتية.[47]ومن أطرف ماكان يكتبه هي بعض المقالات التي صور فيها ملامح شخصيته وأدبه وحلل آثاره ومكانته في الأدب العربي، وكان لخفة ظله وفكهاته العذبة أثر كبير في إضفاء طرافة محببة على تلك المقالات الشيقة التي كانت تصدر تحت عنوان " الحديث ذو شجون" [48]. وقد كتب مبارك مقالا عنوانه " أنا الكاتب الأول " وكان مما جاء فيه : الكاتب الأول: زكي مبارك .. وله محاسن وعيوب، فمن محاسنه أن يحدثك كما تحدث نفسك، بحيث تشعر أنه قد يعرف من سائرك الذاتية أكثر مما تعرف. إنه منوع المواهب فهو يكتب في شؤون أدبية واجتماعية وفلسفية بأساليب تجعله الكاتب الأول في تلك الشؤون ..

أما عيوب زكي مبارك فهي أثقل من أن تحتملها الجبال ، فهو مغرور بنفسه إلى أبعد الحدود، وهو في بعض من أحكامه الأدبية لا يخلو من اقتحام واعتساف، وهو يحاول في كل مقال أن يثير حربا شعواء ! كما كتب مقالا آخر جعل عنوانه " أنا نفسي" يقول معللا لما أسلفنا : وما أقول هذا حبا في الزهو والخيلاء وإنما الواقع أني درست نفسي فرأيتها غير صالحة للارتياض بآداب الناس، ومازلت أعجب كيف استطعت أن أعيش في دنيا لا صديق فيها ولا حبيب .. ولعل السر في صلاحيتي للعيش أني صادفت أقواما رماهم الدهر بما رماني فائتلفنا كما تأتلف الوحوش.[49]

فالإعلان عن الذات من جانب زكي مبارك إذن لم يكن إلا صرخة مظلوم يجأر بالشكوى في عالم لم ينصفه ولم ينتصف له من ظلمه، وقد عز عليه أن يرى نفسه دون حقه وأن يرى من هو دونه فوقه . ومن هنا كان هذا الإعلان عن الذات تعبيرا عن موقف مأساوي بكل مايحمل هذا اللفظ من معنى أو معاني المأساة، شريطة أن يكون تفسير هذا الموقف مقترنا بالخلوص من البداية إلى النهاية، ومن المقدمات إلى النتائج ومن الدوافع إلى الأغراض، ومن الظواهر إلى الأعماق. عندئذ سوف ينصف مبارك، ولن يكون ثمة اختلاف كبير في تفسير أية قضية تتصل بشخصه أو بعمله، لأن كلا منهما قد أخذ من الآخر بنصيب يكمله ويساعد على

تفسيره دفعا إلى التحليق أو الإسفاف، وسببا إلى الإبداع أو الإفلاس والانهيار؛ وعندئذ نعلن مصرحين بأن الإعلان عن الذات لم يكن معالجة لقضية شخصية حين جعل من هذه الشخصية مجالا خصبا للدراسة والتجربة يستدل بها على حقائق من شؤون النفس الإنسانية .

وهنا يكمن السر في تفوق هذا الرجل وتوجهه سريعا ثم خمود الجذوة والعقل والفكر ثم الانهيار التام حين كف عن الكتابة أو كاد، وأصبح فيما يكتب وكأنه تلميذ كسول لا يحسن صياغة العبارة السليمة .

كان البارود انفجر فأضاء وسطع، حتى إذا خبا الشعاع لم يبق إلا أصداء لصوت معزول يتردد في فراغات نفسه الرحيبة... هذا الكاتب الكبير أصبح في السنوات الأخيرة من حياته يقضي الساعات الطويلة في المشارب والحانات ساهدا سامدا دون قراءة ولا كتابة ولا أي شيء يفيد.

والذي حدث لمبارك أنه نتيجة لما لقي على أيدي جلاديه فقد توازنه في الحياة. لقد كان الصراع حادا عنيفا جعله يحترق ويذوي قبل الأوان ويغيب الشعاع قبل الغروب، هذا الرجل الذي كان يرى الحياة نضالا متصلا كشرط لتحقيق النجاح إذا كانت الأمور تسير سيرها الطبيعي، ولكن الحياة نفسها لم تعترف له بهذه المثالية ولا هي مكنته من السير في هذا السبيل، هذا الرجل أصبح في السنوات الأخيرة من حياته يحيا وكأنه مسلوب الإرادة، مسير لا مخير، عفوي الطبع ساذجا، وقد استراح إلى الاسترخاء الممل الطويل بعد أن كان يقظ الفؤاد والفكر والوجدان.

كان مبارك يريد أن يظل في المقدمة وعلى القمة التي حط عليها في يوم ما ، ولكن البقاء على القمة يقتضي مواصلة الجد والكفاح، إلا أن قواه كانت قد خارت فاستبدلها بهذا الإعلان والصراخ الذي لم يكن في الحقيقة سوى شكوى مظلوم وصرخة رجل يهوي سريعا إلى الحضيض، حينما لم يجد له مكانا على السفح .

يقول أحمد حسن الزيات: لو استطاع مبارك أن يتملق الظروف ويصانع السلطان، ويتقن شيئا من المداراة لاتقى كثيرا مما جرته عليه بداوة الطبع وجفاوة الصرامة[50].

وبين الدهاليز المظلمة وفي المسارب الرطبة والغرف المظلمة من عمى الضمير ضاع زكي مبارك. إن الذي لا شك فيه أن مباركاً لم يكن مريضا، وإنما حمل أمراض مجتمع فاسد سقيم، وكان عليه أن يمسك الطعم حتى يتجنب هذه النهاية التعيسة، ويروض نفسه على القبول والرضا كيلا يظل في تمرده وإبائه وعناده مسترسلا في التحدي.

أما بعد فقد عاش مبارك في حياته غريبا ومات غريبا بعد أن خذله زملاؤه وبعض تلاميذه وبعد أن تنكرت له الحياة فعاش فيها كالطائر الغريب يشكو الغربة والخيبة والخذلان، حتى غدت حياته مثالا نادرا على صنيع الظلم النكير بالعباقرة الفحول من أحرار الرجال.

خاتمة:

عمدت هذه الدراسة في سطورها الآنفة إلى تسليط الضوء على واحدة من أكثر المآسي الإنسانية التي قد تلحق بالأديب أو الفنان حيث ما كان، وخصوصا إذا لم يكن ممن يحسنون التملق والمصانعة، أو تغلب عليه الصراحة والصدق الشديدان في التعاطي مع الأشياء والناس، وما تُوَرِّثُهُ من الإحساس بالغربة والاغتراب معا،ولا سيما حين ننظر إلى بواعث تلك الظاهرة ودواعيها لنرى مدى ظلم الإنسان لأخيه الإنسان في كل زمان ومكان .

هوامش وإحالات المقال

[1]- ديوان شعر المتلمس الضبعي، عني بتحقيقه وشرحه والتعليق عليه حسن كامل الصيرفي، معهد المخطوطات العربية، القاهرة،1970 ص 267

[2]- عبد القادر البغدادي: خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب، تحقيق عبد السلام هارون،مكتبة الخانجي، بيروت، ط1997،4، الجزء 3، ص 112

[3]- لسان العرب لابن منظور، تقديم الشيخ عبد الله العلايلي، إعداد وتصنيف يوسف خياط، مج2، دار لسان العرب، بيروت، ص 967

[4]- جبور عبدالنور: المعجم الأدبي، دار العلم للملايين، بيروت- لبنان،ط1984،2ص186

[5]- هو الدكتور زكي مبارك

[6]- مجلة عالم الفكر، المجلد العاشر، العدد الأول، أبريل – مايو – يونيو 1979

[7]- فتح الله خليف الاغتراب في الاسلام، مجلة عالم الفكر،العدد1، أبريل،1979

[8]- الاغتراب والأدب المعاصر، ف – شربينا، ترجمة نزار عيون السود، مجلة الآداب الأجنبية، العدد 2 السنة 2، تشرين الأول 1975،ص250

- المرجع السابق، الصفحة نفسها.[9]

- كولن ولسون، اللامنتمي، نقله إلى العربية أنيس زكي حسن، دار الأداب بيروت ط2، 1979، ص 5[10]

- محمد غنيمي هلال، الرومانتيكية،دار العودة، بيروت،1973، ص81[11]

[12]- زكي مبارك، التصوف الإسلامي في الأدب والأخلاق، منشورات المكتبة العصرية للطباعة والنشر، صيدا بيروت، دت دط، ج2، ص3

[13]- هو الدكتور زكي مبارك

- التصوف الإسلامي، ج2، ص4[14]

- ديوان الشريف الرضي،شرح يوسف شكري فرحات،دار الجيل، بيروت،ط1، 1995،ج1،ص296[15]

- ديوان الطغرائ، تحقبق علي جواد الطاهر-يحي الجبوري، مطابع الدوحة الحدبثة قطر ط1986،2،ص389-390[16]

[17]- عبد الرزاق الهلالي، زكي مبارك في العراق، منشورات المكتبة العصرية،بيروت لبنان،ط1،1969، ص75

[18]- ديوان القاضي الجرجاني،أشرف عليه وراجعه إبراهيم صالح، جمع وتحقيق ودراسة سميح إبراهيم صالح، دار البشائر للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق،2003،ص98

[19]- حسن عزت: عبدالباسط الصوفي الشاعر الرومانسي - صحيفة تشرين - دمشق - العدد 3612 - يونية 1986.

- ماهر حسن فهمي: الحميم والغربة في الشعر العربي الحديث، القاهرة، 1980، ص26[20]

[21]- عبد العزيز المقالح: أصوات من الزمن الجديد، دار العودة، بيروت لبنان، ط1، 1980، ص228

[22]- زكي مبارك، جناية أحمد أمين على الأدب العربي، عرض ودراسة حسين خريس،منشورات المكتبة العصرية،بيروت لبنان، ص20

[23]- المرجع السابق، ص 12

[24]- التصوف الإسلامي في الأدب والأخلاق، ج2، ص107

- زكي مبارك، حب ابن أبي ربيعة وشعره، منشورات المكتبة العصرية، صيدا- بيروت، دت، ص 71[25]

[26]- زكي مبارك: النثر الفني في القرن الرابع، دار الجيل، بيروت، لبنان، دت، دط، ج2، ص17

[27]- المرجع السابق، ص15

[28]- محمد محمد رضوان، كتاب الهلال، عدد خاص بزكي مبارك، دار الهلال، بيروت لبنان، ص 61

[29]- ديوان زكي مبارك، مطبعة حجازي، القاهرة، ط1، 1933، ص 52

[30]- كتاب الهلال، ص 83

[31]- زكي مبارك، مجنون سعاد، سلسلة كتاب الهلال، دار الهلال، 1977، ص 85

[32]- زكي مبارك، العشاق الثلاثة، منشورات المكتبة العصرية، بيروت لبنان، ص11

[33]- للمزيد من التوسع يراجع كتاب الهلال لمحمد محمد رضوان

[34]- زكي مبارك في العراق، ص23

[35]- جناية أحمد أمين، ص 23

[36]- زكي مبارك، البدائع (صور وجدانية وأدبية واجتماعية)،المطبعة المحمودية التجارية- مصر،ط2، 1935،ج2،ص169

[37]- الجناية، ص 39

[38]- نشرت هذه المقالات الاثنتان والعشرون في مجلة الرسالة لأحمد حسن الزيات

[39]- هو عنوان الكتاب الذي اشتمل على هذه المقالات.

[40]- الجناية، ص103

[41]- الرجع السابق، ص102

[42]- زكي مبارك: ديوان ألحان الخلود،مكتبة مصر- الفجالة، دار مصر للطباعة،دت،ص 50

[43]- الجناية، ص 21

[44]- زكي مبارك، المدائح النبوية في الأدب العربي، مؤسسة هنداوي، القاهرة، 2022، ص21

[45]- جناية أحمد أمين، ص67

[46]- زكي مبارك، البدائع،ص33

[47]- المرجع نفسه، ص34

[48]- زكي مبارك، الحديث ذو شجون، الهيئة العامة المصرية للكتاب القاهرة، 2006.

[49]- زكي مبارك، رسالة الأديب،منشورات وزارة الثقافة، دمشق- سوريا،1999،ص302

[50]- جناية أحمد أمين، ص 23.

قائمة المصادر والمراجع:

1. ابن منظور، لسان العرب، تقديم الشيخ عبد الله العلايلي، إعداد وتصنيف يوسف خياط، مج2، دار لسان العرب، بيروت.
2. جبور عبدالنور: المعجم الأدبي، دار العلم للملايين، بيروت- لبنان،ط2،1984.
3. الجرجاني، الديوان،أشرف عليه وراجعه إبراهيم صالح، جمع وتحقيق ودراسة سميح إبراهيم صالح، دار البشائر للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق،2003.
4. حسن عزت: عبدالباسط الصوفي الشاعر الرومانسي - صحيفة تشرين - دمشق - العدد 3612 - يونية 1986.
5. ديوان شعر المتلمس الضبعي، عني بتحقيقه وشرحه والتعليق عليه حسن كامل الصيرفي، معهد المخطوطات العربية، القاهرة،1970.
6. زكي مبارك: النثر الفني في القرن الرابع، دار الجيل، بيروت، لبنان، دت، دط، ج2.
7. زكي مبارك، التصوف الإسلامي في الأدب والأخلاق، منشورات المكتبة العصرية للطباعة والنشر، صيدا بيروت، دت دط، ج2.
8. زكي مبارك، العشاق الثلاثة، منشورات المكتبة العصرية، بيروت لبنان.
9. زكي مبارك، المدائح النبوية في الأدب العربي، مؤسسة هنداوي، القاهرة، 2022.
10. زكي مبارك، جناية أحمد أمين على الأدب العربي، عرض ودراسة حسين خريس،منشورات المكتبة العصرية،بيروت لبنان.
11. زكي مبارك: ديوان ألحان الخلود،مكتبة مصر- الفجالة، دار مصر للطباعة،دت.
12. زكي مبارك، البدائع (صور وجدانية وأدبية واجتماعية)،المطبعة المحمودية التجارية- مصر،ط2، 1935،ج2.
13. زكي مبارك، الحديث ذو شجون، الهيئة العامة المصرية للكتاب القاهرة، 2006.
14. زكي مبارك، الديوان، مطبعة حجازي، القاهرة، ط1، 1933.
15. زكي مبارك، حب ابن أبي ربيعة وشعره، منشورات المكتبة العصرية، صيدا- بيروت، دت.
16. زكي مبارك، رسالة الأديب،منشورات وزارة الثقافة، دمشق- سوريا،1999.

17.زكي مبارك، مجنون سعاد، سلسلة كتاب الهلال، دار الهلال، 1977.
18.الشريف الرضي، الديوان،شرح يوسف شكري فرحات،دار الجيل، بيروت،ط1، 1995،ج1.
19.الطغرائ،الديوان، تحقيق علي جواد الطاهر-يحي الجبوري، مطابع الدوحة الحديثة قطر ط1986،2.
20.عبد الرزاق الهلالي، زكي مبارك في العراق، منشورات المكتبة العصرية،بيروت لبنان،ط1،1969.
21.عبد العزيز المقالح: أصوات من الزمن الجديد، دار العودة، بيروت لبنان، ط1، 1980.
22.عبد القادر البغدادي: خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب، تحقيق عبد السلام هارون،مكتبة الخانجي، بيروت، ط1997،4، الجزء 3.
23.ف – شربينا، الاغتراب والأدب المعاصر،، ترجمة نزار عيون السود، مجلة الآداب الأجنبية، العدد 2 السنة 2، تشرين الأول 1975.
24.فتح الله خليف الاغتراب في الاسلام، مجلة عالم الفكر،العدد1، أبريل،1979
25.كولن ولسون، اللامنتمي، نقله إلى العربية أنيس زكي حسن، دار الأداب بيروت ط2، 1979.
26.ماهر حسن فهمي: الحميم والغربة في الشعر العربي الحديث، القاهرة، 1980.
27.محمد غنيمي هلال، الرومانتيكية،دار العودة، بيروت،1973.
28.محمد محمد رضوان، كتاب الهلال، عدد خاص بزكي مبارك، دار الهلال، بيروت لبنان.